

الفصل الخامس

غرب آسيا - بلاد بابل أقطار وأجناس آسيا الغربية

إن أهم مكان سكنه الانسان في غرب آسيا هو ذلك الجزء المحصور بين الجبال في الشمال والصحراء في الجنوب ، وهو يكاد يكون حدوداً تفصل هاتين المنطقتين وساعدتها الطبيعة لأن تصبح أرضاً منزرعة ، وذلك المكان هو ما نسميه الهلال الخصيب (١) لأنه يكون شكلاً نصف دائري على وجه التقريب .

ويرتكز حرفه الغربي في جنوب شرقي البحر الأبيض المتوسط ، ووسطه فوق شبه جزيرة العرب ويرتكز حرفه الآخر عند الخليج الفارسي وخلف ظهر هذا الهلال تقوم الجبال المرتفعة ، وعلى ذلك تكون فلسطين عند نهاية الجزء الغربي منه وبلاد بابل في الجزء الشرقي بينما تكون بلاد آشور جزءاً كبيراً من وسطه .

وهذا الهلال الخصيب ليس إلا امتداداً لصحراء العرب ، وهو يشبه شواطئ جون صحراوي تحيط به الجبال ، ولكن هذا الجون ليس مملوءاً بالمياه ولكنه مملوء برمال الصحراء التي تمتد نحو خمسمائة ميل .

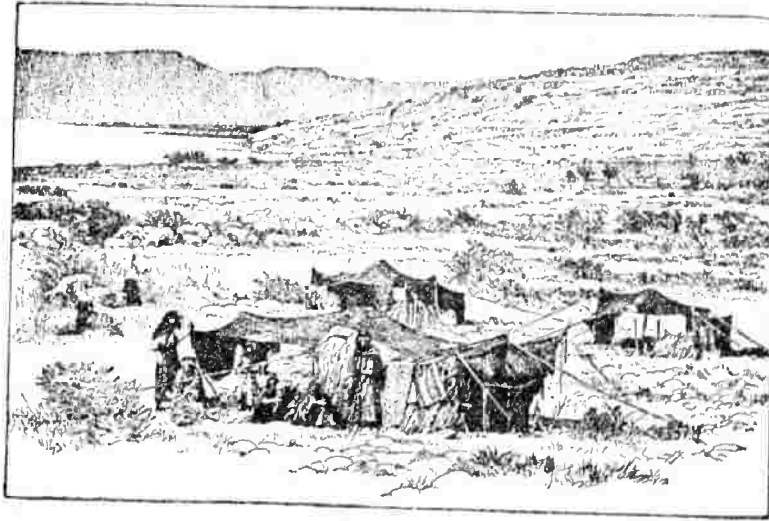
وفي أيام الربيع بعد ما تسقط مياه الأمطار تتحول مناطق كثيرة من هذا الجون الصحراوي إلى أرض مغطاة بالحشائش يتنازع عليها سكان الجبال وسكان الصحراء ، كل يريد امتلاك ما يقدر عليه ويتصارع كل منهما على الفوز به ، وهذا الصراع ما زال يحدث إلى اليوم وكان يحدث في جميع الأزمان . بل إن تاريخ غرب

١ - لا يوجد اسم جغرافي أو سياسي يطلق على البلاد التي تتجمع في نصف هذه الدائرة ، ونحن مضطرون عند الحديث على هذا الجزء من الناحية التاريخية كوحدة أن نجد اسماً له ولهذا أطلقنا عليه في كتابنا المقرر على طلبة المدارس الثانوية (Ancient Times (Boston 1916 اسم الهلال الخصيب وأصبح هذا الاسم منذ ذلك العهد شائع الاستعمال .

آسيا ليس إلا تاريخا للصراع بين سكان الجبال وسكان الصحراء .
وحرمت الطبيعة بلاد العرب من الأنهار ولا تسقط فيها الأمطار إلا مدة
أسابيع قليلة في وسط الشتاء ولهذا فإن أكثر مساحتها أراض صحراوية وليس فيها
إلا جزء صغير يمكن للناس أن يعيشوا فيه بصفة دائمة .

ومنذ أقدم الأزمنة حتى الآن كان سكان هذه المنطقة بمجموعة من شعوب من
الجنس الأبيض اسمهم الساميون ، وهم الآن - كما كانوا دائما - ينقسمون إلى قبائل
متعددة لم تتحد في تاريخها لمدة طويلة فتكوّن أمة واحدة متماسكة وتشبه في ذلك
هنود أمريكا الذين ينقسمون إلى قبائل مختلفة يعرفون بها مثل السيوكس (Sioux)
أو السيمينول (Seminole) أو الإيروكوى (Iroquois)

ومن أهم قبائل هذه الشعوب السامية اثنان يعرفهما كل فرد حق المعرفة وهما
العرب والعبرانيون الذين يعيش أحفادهم بين ظهرانينا في أمريكا .



شكل : ٤٠ - بدو ساميون من سكان الهلال الخصيب على مقربة من بحر
الجليلية

يستطيع هؤلاء البدو أن يحملوا خيامهم المصنوعة من وبر الجمال الداكن اللون
من مكان إلى آخر حيث يجدون أماكن جديدة للمرعى .

ويتكلم هؤلاء العرب والعبرانيون حتى الآن لهجات لغة واحدة في الأصل ومازال العرب إلى يومنا هذا يفعلون ما فعلوه أجيالا طويلة يسرون وراء المرعى في بلاد الجزيرة العربية وما جاورها . وعندما تجف الحشائش على حافة الصحراء كان هؤلاء البدو ، منذ أقدم الأيام ، يتركون رمال البقاء ليقسموا على حافة الأراضي المنزرعة ، فإذا أمكنهم أن يثبتوا أقدامهم ينقلبون على مدى الأيام من حياة البدو الرحل إلى حياة الزراعة ، وكثيرا ما كانوا يهاجرون إلى المناطق التي على حافة الصحارى في جموع كبيرة . جموع تعيش حياة أقرب إلى حياة الهمجية وكانت تنزل على تلك البلاد كما ينزل السيل . ويتركون الصحراء ويذهبون إلى المدن ثم لا يلبثون حتى يطغوا على من فيها من سكان ، وقد تكرر ذلك مرات عدة خلال آلاف السنين نذكر منها هجرة العبرانيين إلى فلسطين كما تصفها التوراة وغزو جحافل العرب لمن جاورهم من الشعوب بعد اعتناقهم للدين الإسلامى ، ووصلت فتوحاتهم إلى أوروبا وكادوا يطوقون البحر الأبيض المتوسط . فإن تلك القبائل السامية التي خرجت للغزو استقرت في البلاد المختلفة على هيئة جاليات ثم أخذت تنتشر نحو الغرب على طول البحر الأبيض وشمال أفريقيا إلى أن وصلت إلى أسبانيا والمحيط الاطلانطى ، ولكن لم يتم وصولهم إلى الاطلانطى إلا بعد قرون عديدة ، ولنقصر الآن حديثنا على الساميين في الصحراء ونبدأ بهم .

ففي فيافي الصحراء لا يعرف الناس حدوداً معينة والمرعى مباح لأول قادم ، مثل الهواء لا يمتلكه أحد . فليس بين رجال القبيلة الواحدة من يمتلك أرضاً ، أو فيهم من يقال أنه غنى لأنه صاحب أرض واسعة أو فقير لأنه لا أرض له ، ولا يعرف أهل الصحراء قانوناً ، فإن البدوى ذا العين الفاحصة يرمى ببصره نحو التلال التي أمامه ناظراً إلى قطعان القبيلة الأخرى ويتمنى لو تصبح ملكه ، وهو يعلم أن ذلك يصبح محققاً لو أنه ذهب وقتل الراعى الذى يجلس على مقربة من البئر ، ولكن

يمنعه من ذلك علمه بأنه لو أقدم على ما فكر فيه فإنه سي جلب الموت أو الدمار لأهله . وأن دم هذا الراعى لن يذهب هدرآ ، وسينتقم أهل هذا الراعى له دون أن ينتظروا من الحكومة أن تفعل شيئاً لأن عادة الأخذ بالثأر مرعية الجانب بينهم وتوقف كل شخص عند حده ولها ما للقانون من أثر رادع .

وفى مثل تلك البيئة لا يمكن أن تقوم دولة لأنه لا يعرف أحد الكتابة أو حفظ المستندات وتكاد الصناعات أن تكون معدومة .

ويحيا رجال القبائل فى الصحراء حياة حرية مطلقة . وليس للحكومات القائمة فى بلاد العرب اليوم سلطة تامة على البدو الذين ينتقلون من مكان إلى مكان فى تلك البادية المترامية الأطراف وتشبه سلطتها عليهم ما كان للسلطات الأمريكية من نفوذ على رعاة البقر الذين لم يردعهم قانون .

وينتقل رجال هذه القبائل ومعهم قطعان أغنامهم على حافة الهلال الخصيب حتى تلوح لأعينهم مدينته من المدن تحف بها أشجار النخيل فيذهبون إليها ويقصدون سوقها ليشتروا السلاح والثياب وبعض الأدوات التى لا يستغنى عنها البدوى . وتعلم هؤلاء البدو منذ وقت بعيد نقل السلع من مكان إلى مكان فأصبحوا الناقلين للتجارة بين مدينة وأخرى ، ثم تقدموا بعد ذلك فصاروا أصحاب التجارة ، يتاجرون لحسابهم الخاص ويسافرون دون خوف أو وجل فى ذلك المتسع العظيم من الصحراء الذى يفصل بين سوريا وفلسطين وبابل وأصبح هؤلاء البدو أعظم التجار فى العالم القديم كما أصبح أحفادهم العبرانيون أعظم التجار فى أيامنا هذه .

والبرية وطن البدوى ، اعتاد على الحياة فيها وحيداً فصبغت روحه بالوقار ، وملأت خياله بكائنات لا يراها ولكنه يخشاها ، واعتقد أن تلك الكائنات سكنت فى كل شجرة أو صخرة وفى كل مرتفع أو عند مورد المياه . وكانت تلك المخلوقات هى آلهته التى اعتقد أن فى استطاعته التغلب على أذاها إذا ماتمتم

ببعض الألفاظ التي فيها قوة سحرية . كانت تلك التعويذات هي أقدم أنواع الصلاة ، وكان البدوي يعتقد أن تعويذاته تضمن له أن تلك الآلهة لا تصيبه بأذى بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فيعتقد أنها تجبر هؤلاء الآلهة ليقدموا له المعونة .

وتصور البدوي أن سلطة كل كائن من هذه الكائنات كانت تمتد على مكان محدود في هذا الكون المترامي الأطراف ، مثل بئر وما حوله من مراعي أما البئر التالي والذي لا يبعد أكثر من مسيرة يوم واحد فإنه كان تحت سلطان إله آخر لقبيلة أخرى ، لأنه كان لكل قبيلة إلهها الذي يعبد أفرادها وكان هذا الإله يسير مع أفراد القبيلة أينما ذهبوا يشاركونهم في طعامهم وفي أعيادهم ويقدم له كل شخص أول ما تلده أنثى ماشيته وأغنامه . ولم ير ذلك البدوي المتنقل في إلهه إلا إلهها ذا خلق فبحسب للقسوة وله عادات همجية طالما حملته على ذبح أبنائه ليرضيه ويتقي غضبه ومن ناحية أخرى آمن هذا البدوي في قرارة نفسه بالعدل والحق وكان يؤمن بأن واجبه يحتم عليه أن يكون عطوفاً على زملائه واعتقد أن ذلك من أمر الله ، وأخيراً أصبح هذا الشعور نظرية خلقية عالية جعلت من هؤلاء الساميين المعلمين الدينيين للعالم المتمدن .

وفي عام ٣٠٠٠ ق . م كان الساميون قد أخذوا يتوافدون من الصحراء ليستقروا في فلسطين في الجزء الغربي من الهلال الخصيب ولم يأت عام ٢٥٠٠ ق . م حتى نراهم يعيشون في مدن تحيط بها الأسوار . هؤلاء هم الكنعانيون أسلاف العبرانيين ، وكان هناك ساميون آخرون استوطنوا في الشمال وفي الشرق أشهرهم الأكديون ثم العموريون فيما بعد . أما الفينيقيون فاستوطنوا الشاطئ الشمالي لسوريا ، وكان هؤلاء القوم بدوياً رحلاً كغيرهم ولكن لم يلبثوا حتى أخذوا يحوون البحار وأصبحت ميناء جبيل (Byblos) من أقدم موانئ فينيقيا وأهمها وكانت . غابات الأرض تتوج الجبال التي تقع خلفها ، وكان خشب هذه

الأشجار ثميناً وكان المصريون يحرصون على الحصول عليه مما حملهم على إنشاء الصلات التجارية بينهم وبين أمراء جبيل قبل عام ٣٠٠٠ ق . م .

وما وافى عام ٢٠٠٠ ق . م حتى كان الساميون الذين عاشوا في الجزء الغربي من الهلال الخصيب قد وصلوا إلى درجة غير قليلة من الحضارة استمدوا أكثرها من مصر وبابل ، لأن هذه البلاد التي تقع على طول الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط كانت في الطريق الذي يربط بين تلك المملكتين ، ولهذا كانت دائماً على صلة بكل منهما .

وإذا كان الساميون قد غزوا الهلال الخصيب من جنوبه أى من ناحية الصحراء ، فإن سكان الجبال غزوه أيضاً في شماله واتخذ بعضهم لنفسه موطناً فيه . ولم يكن هؤلاء الجبليون من الجنس السامي ولكنهم كانوا على كل حال من فروع مختلفة من الجنس الأبيض ، وقد تطاحن هؤلاء الجبليون مع القبائل السامية قروناً طويلة متنافسين على امتلاك الهلال الخصيب .

ونشأت أقدم الحضارات في آسيا الغربية في الطرف الشرقي من الهلال الخصيب في وادي نهري دجلة والفرات اللذين سنطلق عليهما من الآن اسم « الرافدين » ، وسيدأ هذان النهران في الجبال الشمالية ثم يصلان إلى الهلال الخصيب ثم ينحني مجراهما متجهاً نحو الجنوب الشرقي ، وفي هذا المكان من بلاد الشرق أى على شاطئ الرافدين يمكننا أن نتبع تاريخ بعض الشعوب القديمة في مدى بضع آلاف من السنين ، ونرى تطور مدينتها .

وينقسم تاريخ دجلة والفرات إلى ثلاثة فصول ، أقدمها تاريخ بابل في الجنوب عند مصب النهرين . وعلى بعد ثلاثمائة وعشرين ميلاً تقريباً من الخليج

الفارسي^(١) من المكان الذي يقترب فيه النهران من بعضهما ، ونرى هذين النهرين وقد تركا المناطق الصحراوية في الشمال ويبدآن سيرهما في وادى واطىء خصب التربة كونه رواسب النهرين . وذلك هو الوادى المسمى أرض بابل الذى يكون الحد الشرقى للهلال الخصيب .

ولم تكن مدينة بابل ذات أهمية أثناء الألف سنة الأولى من تاريخ الميلاد ، وورد اسم الوادى في التوراة تحت كلمة « شنعار » وسنستعمل هذا الاسم عند الحديث على العصور القديمة لتلك البلاد لأن اسم بلاد بابل لم يصبح علماً على الجزء الشرقى من الهلال الخصيب إلا في بداية الألف الثانى قبل الميلاد ، فإننا إذا أصررنا على استعمال كلمة بلاد بابل فإننا نكون كمن يطلق اسم فرنسا عند حديثه على بلاد الغال في أيام يوليوس قيصر .

وسهل شنعار لا يكاد يزيد عن أربعين ميلاً في العرض ، وتقل مساحته عن ثمانية آلاف كيلو متر مربع من الأراضي الصالحة للزراعة أى ما يقارب ولاية نيوجرسى في الولايات المتحدة الأمريكية أو بلاد ويلس في إنجلترا . ومناخها تتبع مناخ البحر الأبيض المتوسط أى تسقط فيه الأمطار أثناء الشتاء فقط ثم تليها شهور الجفاف في الصيف وكمية الأمطار ضئيلة وهى أقل من سبع بوصات في السنة^(٢) ولهذا تحتاج الحقول إلى الري لينضج المحصول . وإذا وجد سهل شنعار من يعنى بثئون الري فيه فإنه يصبح من أجود الأراضي ، وكانت الزراعة هى المصدر الرئيسى للثروة لسكانه في الأزمنة القديمة .

١ - يصب نهر دجلة والفرات في الخليج الفارسي وبحملان معهما رواسب تملأ هذا الخليج عاماً بعد عام . ومنذ الأيام الأولى في تاريخ بابل حتى الآن ملأ النهران من هذا الخليج مسافة ١٦٠ ميلاً تقريباً

٢ - مبنية على حساب التقارير الإنجليزية في السبعة والعشرين عاماً التي تليها من عام ١٨٨٧ وتنتهى في عام ١٩٢٤

أقدم الحضارات الهامة في وادي الرافدين « السومريون »

أثبتت الاكتشافات الأثرية أن أقدم الحضارات الهامة في وادي الرافدين تطورت على يد قوم غير سامي الأصل ، لم نعرف جنسهم الأصلي على وجه التحديد حتى الآن ، وهم يسمون السومريون لأن المنطقة التي كانت لهم السيادة فيها من بلاد الرافدين كانت تسمى « سومر » .

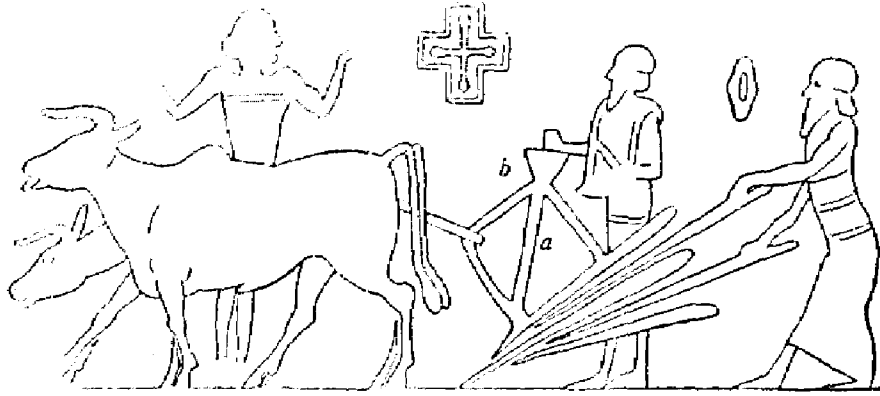
ومن المحتمل أن هؤلاء السومريين كانوا قد بدأوا في تخفيف المستنقعات التي كانت عند رأس الخليج الفارسي قبل عام ٣٥٠٠ ق . م وأخيراً امتدت قرى أكوأخهم المبنية من الطوب الأخضر من المنطقة الواقعة فوق بغداد الحالية حتى مصب النهرين وبخاصة على شاطئ الفرات لأن مياه دجلة واطنه كثيراً عن الأراضي المنزرعة .

وتعلم السومريون كيف يحافظون على مياه العيون بعمل جسور لها ، عرفوا أيضاً توزيع المياه في قنوات الري ، وعرفوا حصاد محصول الحبوب . وكانوا في تلك الأيام يزرعون الشعير والقمح وامتلكوا الماشية والضأن والماعز . ولعبت هذه الحيوانات دوراً كبيراً في حياتهم إلى الحد الذي جعلوا فيه إحدى آلهتهم الهامة على شكل بقرة واعتقدوا أنها كانت تجمي قطعان حيواناتهم . وكان لهذه الآلهة معابد كشف عن واحد منها على مقربة من مدينة « أور » منذ عهد قريب وعثر فيه على نقوش على الأحجار نرى من بينها مناظر صناعة الألبان لدى السومريين ، كما نرى فيها مناظر تمثل الثيران تجر المحراث أو الثيران والحمير^(١) تجر العربات ذات العجل

١ - يوجد على بعض الآثار السومرية رسم لحوان غريب الشكل اختلف في وصفه على أنه كحصان

أو كبغل أو كعنمار آسيوى موحش .

أو المركبات ، وقد رسمت المركبات مزودة بعجلات متينة حولها إطار من الجلد أو النحاس كما كشفت الحفائر عن بقايا مهشمة منها .



شكل : ٤١ - آلة بابلية قديمة لبذر الحبوب

نرى في هذا الشكل رسم آلة يجرها ثوران يمشى سائقهما الى جوارهما . ونرى خلف السائق رجلا يمسك بكلتا يديه هذه الآلة التي تحفر بسننها المدبب في الارض وتخط فيها عند سيرها . وفوق سن المحررات قناة رأسية (أ) في أعلاها قمع (ب) وإلى جانب الرجل الذي يقود هذه الآلة نرى شخصاً ثالثاً يسير بجواره يلقي باحدى يديه حبوباً من القمح في القمع بينما يضع يده الاخرى في غرارة المحبوب معلقة في كتفيه . وكانت الحبوب تنزل من القمح الى القناة ومنها الى الخندق الذي حفره السن المدبب للآلة . هذا الرسم منقوش على اناء حجري صغير (نقلا عن كلاي)

وعرف السومريون صناعة المعادن في وقت مبكر وكان من بينهم صناع مهرة عرفوا كيف يطرقون النحاس وعرفوا طريقة صبه ، ونرى من تحليل بعض أدواتهم أنها تحتوي على نسبة عالية من الصفيح مما حمل بعض الباحثين على القول بأنهم عرفوا في وقت مبكر صناعة البرونز الذي كان أكثر صلابة من النحاس .

وصنعوا من النحاس أسلحة وآلات ، وأدوات للزينة وغيرها كما صنعوا أيضاً تماثيل للعبودات ، وإلى جانب النحاس توصلوا أيضاً إلى معرفة الذهب والفضة والرصاص . وكونت الزراعة وتربية الماشية الجزء الأكبر من الثروة التي كانت أساساً للحياة السومرية . ومع ذلك لم يأل السومريون جهداً في التقدم بصناعاتهم ولم يقف بهم الأمر عند حد الموارد الميسورة لهم بل استوردوا

الحامات من بلاد أخرى . وساعدهم صوف الأغنام على تطور صناعة النسيج والحصول على ملابس صوفية بالرغم من أن الازار الذى نراه حول وسط السومريين فى الرسوم كان على الأرجح من جلد الغنم .

ونشطت تجارة هؤلاء الناس مع غيرهم من أمم آسيا الغربية وكانت سلحتهم التى حملوها إلى تلك البلاد عبارة عن الأدوات المصنوعة من المعدن والبضائع الصوفية وبعض الحاصلات الطبيعية كالبلح والحبوب كما أثبتت الأبحاث أن هذه التجارة وصلت غرباً حتى البحر الأبيض المتوسط وشرقاً إلى مصب نهر السند وقد قام الدليل بصفة قاطعة على وجود الصلة التجارية مع وادى السند^(١) من العثور فى خرائب المدن القديمة فى سهل شنعار على أختام وأوان وخرز من صناعة سكان وادى السند القدماء . أما فى ناحية الغرب فإن تجارة بلاد الرافدين كانت تتلاقى وتتداخل مع تجارة مصر فى بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ومن المحتمل جداً أنها كانت تصل إلى مصر نفسها . ولا شك أنه كانت هناك صلة بين مصر وبلاد الرافدين ، لأن كلام الحضارتين كانت تُتخَرَج أشياء مصنوعة متماثلة الطراز وذات أشكال خاصة ، مثل دبوس القتال الذى على شكل الكمثرى ، والأختام الأسطوانية واستعمال حيوانات مرتبة فى أشكال خاصة فى الفن الزخرفى فى كل من الحضارتين .

١ - كشفت حفائر السير جون مارشال (Sir John Marshall) التى قام بها لحساب مصلحة الآثار الهندية فى السند والبنجاب عن وجود بقايا حضارة مبكرة يرجع تاريخها إلى عام ٢٥٠٠ ق.م . وكان فى هذه المدن منازل مكونة من طابقين على الأقل ومبنية بالطوب الأحمر . وكان فى هذه المنازل حمامات وكانت فيها أنظمة دقيقة لتصريف المياه . وكانت بعض الحيوانات تجر مركبات على عجلتين واستعملوا الفيلة الأليفة فى حمل الأثقال . وبالرغم من أن النظام الاقتصادى لوادى السند قام على الزراعة فإن الصناعة كانت مزدهرة وقام صناع المعادن بصنع أدوات من النحاس جعلوها أواني وأوعية من الفضة . وعرفوا أيضاً المزجيج وأظهروا فيه بعض المهارة . وصنعوا أختاماً حفرها بمهارة ودقة تثبت لنا أنهم عرفوا الكتابة .

وكان سكان وادى السند معنيين إلى حد كبير بالتجارة ولا بد أن قوافلهم كانت ترحل نحو الشرق بصفة منتظمة مختربة لثال بلوخستان حيث عثر العلماء على مدن شبيهة بدين وادى السند . وقد عثر العلماء فى حفائرهم ، فى آسيا الغربية على آثار تثبت أن هذه التجارة قد امتدت إلى الربع الشمالى الغربى أى إلى البلاد الواقعة حول شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

وقادت التجارة وإدارة الحكومة هؤلاء السومريين في عصر مبكر إلى إثبات بعض البيانات بواسطة حفرها حفراً سطحياً بالجزء المدب من نبات الغاب فوق سطح مستو لقطعة من الطين اللين فإذا وضعوا الطين في الشمس جفت وأصبحت صلبة ، فإذا ما وضعوها بعد ذلك في فرن لحرقتها فإنها تصبح لوحة فخارية تكاد لا تتعرض للبقاء ، وأبقت الأيام على بعض اللوحات الفخارية التي يرجع تاريخها إلى أقدم العهود ونستطيع أن نميز بسهولة الصورة الأصلية لبعض العلامات التي جاءت في كتاباتهم . ونحن نسمى الآلة التي كتبوا بها على الطين بالقلم (Sylus) وكان بعض هذه الأقلام يصنع من شريحة صلبة من نبات الخيزران ولكن بعضها كان من العظم أو الخشب .

وفي بعض النقوش نرى كاتباً وفي يده قلم ، وكان مثل هذا الكاتب لا يحفر خطوط صورة وإنما كان يلتجئ إلى طريقة أخرى ، فإذا أراد مثلاً أن يرسم خطاً فإنه كان يرفع قلبه ثم يضغط على حافته فيغمسها في الطين ثم يرفعه مرة ثانية ويضع حافته مرة أخرى إلى جانب الأولى وهكذا ، وإذا تأملنا شكل القلم نجد حافته على شكل يشبه المثلث أو المسمار لأن رأسه أعرض من الناحية الأخرى ، وكانت كل علامة أو صورة تكتب بمثل ذلك القلم تصبح مجموعة من علامات مركبة من خطوط يشبه كل منها المسمار ونحن نسمى هذا النوع من الكتابة مسمارية نظراً لشكلها (مسمارية ترجمة لكلمة Cuneiform وأصلها من Cuneus اللاتينية ومعناها مسمار) . ولم يطل الزمن حتى أخذت الصور المرسومة بهذا النوع من الكتابة تبعد عن شكلها الأصلي فتصعب معرفتها حتى جاء الوقت الذي لم يعد للشبه بين العلامات المكتوبة وأشكالها الأصلية أي وجود .

ووصل الأمر بالكتابة السومرية أن أصبحت تحتوي على ستمائة علامة منها علامات معنوية ومنها علامات صوتية ، وكانت الأولى تمثل الآراء أو الأشياء

والثانية تمثل الأصوات ، وكانت تستعمل كمقاطع في الكلمات وكانت بعض الكلمات تتكون من أكثر من علامة صوتية يضاف إليها في أغلب الأحيان علامات معنوية لتكون مخصصة لها . ولم يتطور عن هذه الطريقة السومرية أبجدية حروف لتحل محل المقاطع أى أنه كانت هناك مقاطع مثل « كر ، ن ، بن ، ولكن لم توجد علامات للحروف ك أور أو ب أون التى كونت هذه المقاطع ، ولهذا لا يمكننا أن نقدم للقارىء أبجدية كما فعلنا عند حديثنا على الكتابة المصرية (٩) .

وترينا تلك المدونات التى على الطين أن السومريين اعتادوا أن يبدأوا شهورهم مع كل قمر جديد وأن السنة كانت تتكون من اثني عشر شهراً قمرياً ، ولما كانت مدة الاثني عشر شهراً قمرياً تقل فى طولها عن السنة الحقيقية ، فإن الكاتب السومري اعتاد أن يضيف على السنة شهراً إضافياً كلما وجد أنه وصل إلى نهاية السنة التقويمية قبل الفصول بشهر أو مايقرب منه .

وورث اليهود والفرس هذا التقويم الخاطيء غير العملى وما زال سائداً بين يهود الشرق والمسلمين ، ولم يكن السومريون يعدون السنين بل كانوا يفعلون ما فعله المصريون فى مستهل حضارتهم ، وهى تسمية كل سنة باسم حادث هام وقع خلالها . وكان للسومريين نظام فى حساب الأعداد يخلط بين النظامين العشري والستيني ، وكان لديهم علامات لرقم واحد وللعشرة وللستين ، وكانوا يضعون هذه العلامات حسب قيمتها ، كما نضع أرقامنا ، ولكن حسب ترتيبها فى أرقام مفردة وعشرات وستينات ، بدلا من أرقام مفردة وعشرات ومئات ، ولكنهم لم يعرفوا الصفر .

أما وحدتهم الأساسية فى الموازين فهى الـ « مينا » وتنقسم إلى ستين « شِكِل » ، وكل ستين « مينا » ، وزن « تالنت » ، وظلت هذه الأوزان سائدة فى العالم القديم حتى أيام اليونان وكانت المينا تزن رطلا من أوزاننا الحالية ، إذ وصلت هذه الوحدة إلى

العالم الغربي من صلته بالشرق .

وكان مركز الحياة والثقافة السومرية في المدن ، وكان المعبد في المدينة هو نواة حضارتها والمركز الرئيسى فيها ، يقوم في وسطها تحيط به الأسوار الضخمة التى تفصله عن باقى اجزائها ، وفى داخل تلك الأسوار قامت أماكن العبادة ومخازن المعبد والمكاتب ، يشرف عليها جميعا الكهنة الأغنياء يعاونهم الكتبة الذين كانوا يؤجرون ويرعون أملاك المعبد . وقام المعبد مقام البنوك لأن الكهنة كانوا يقرضون الناس باسم الإله ، ويتقاضون الأرباح باسم الإله أيضاً .

وكان برج المعبد يعلو فوق كل المباني ، وكان شكله على وجه التقريب مثل مكعب ولكن يقل عرضه كلما ارتفع . وحول هذا البرج ثلاث مدرجات من سلالم ضخمة مبنية حول الجدران تصل بالزائر الى الباب فى منتصف البرج فوق باب المعبد . وفى بعض الأحيان كانوا يزرعون الأشجار فى مستويات مختلفة حول هذا البرج ، ينقلون إليها الطمى ويجعلون منها حدائق جميلة فى مدرجات على ارتفاعات متعددة . وفى أعلا البرج معبد مربع الشكل ، فيه بهو لاسقف له ، وخلف البهو مكان مقدس ومن أهم المعابد ذات البرج تلك التى قامت فى مدينة نپور (Nippur) لتكون حرماً لإله الهواء ، إنليل (Enlil) مما جعل من مدينة نپور بلداً ذاقدسية خاصة بين جميع المدن السومرية .

ولما كان هذا النوع من المعابد مبنيا على شكل يجعل جوانبه تنحدر إلى الداخل كلما ارتفعت عن الأرض فتصبح قرية الشبه بالجبال ، وكان السومريون أنفسهم يسمونها "بيوت الجبال" ، فمن المعقول أن أهل سهل شنعار أرادوا أن يبنوا آلهتهم بيوتا تليق بهم فوق جبال صناعية . وكان المعبد ذو البرج الذى بنى فى مدينة بابل فيما بعد سببا لنشأ قصة برج بابل التى جاءت عن طريق القصص العبرانى ، ولاشك أن طراز تلك المعابد كان له أثر رائع فى نفس كل من وقعت عليه عيناه وكان

نوعا جديدا في العبارة وصل اليه السومريون وأصبح ذا أثر كبير في الطرز المعمارية (١) .

وكان يقوم معبد آخر إلى جوار المعبد ذي البرج ، وكان هذا المعبد القليل الارتفاع هو المعبد الأساسي وكان بسيطا في نظامه إذ لم يحتو إلا على بهو يليه الهيكل وكان الفلاحون يأتون إلى هذا الهيكل القائم تحت ظل المعبد ذي البرج يحملون قرايينهم من الحبوب والبلح والتين والزيت واللبن والعسل وكذلك بعض الحيوانات . وكانت توضع هذه الأشياء فوق موائد القرايين وكان يؤخذ جزء منها ليكرس أمام الإله أو بعبارة أخرى أمام تمثاله .

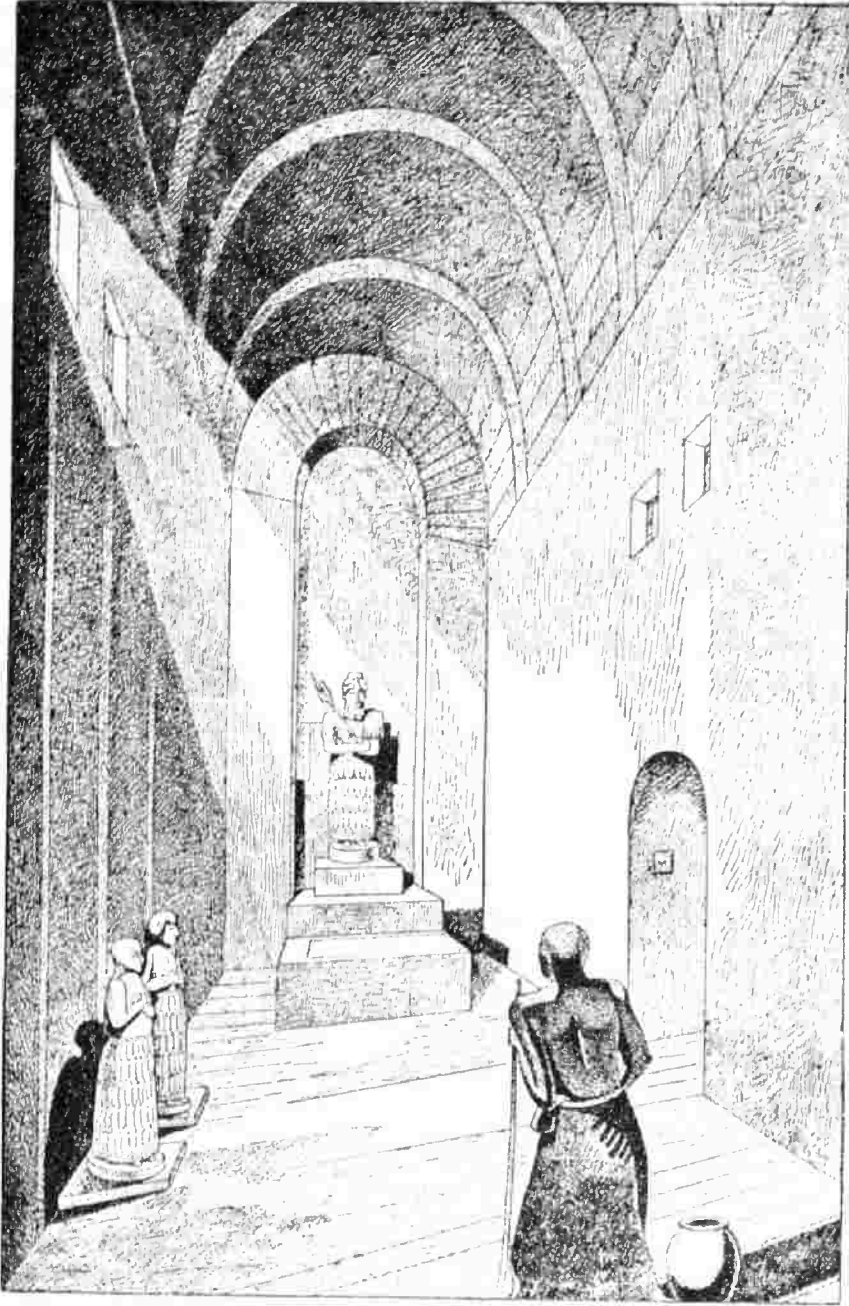
وفي خرائب هذه المعابد عثر الآثريون على أنواع كثيرة من الأدوات التي كانت تستعمل في العبادة وعلى الأواني التي كانوا يضعون فيها السائل ليصبوها على القرايين أثناء الصلوات ، كما عثر الآثريون أيضا على مناظر يرجع تاريخها إلى ذلك العصر وعرفنا من دراستها ، أنه كانت تقوم في تلك المعابد احتفالات ذات معاني رمزية .

فمثلا كانوا يضعون جريدة من جريد النخل ومعها بعض شماريخ البلح في إناء

١ - أم بين الاقليل من بقايا تلك الابراج البابلية واختافت الآراء في معرفة شكلها الاصيلي معرفة لا يدخلها شك . وميل الحرب العالمية (الاولى) عثر مرة اخرى على لوحة مسمارية من عصر متأخر سطر عليها أبعاد برج بابل .

وتمكن كولدوي Koldwey الذي قام بحفر خرائب مدينة بابل ووجد القاعدة المربعة للمعبد أن يرسم رسما تخيلا لا كان عليه المعبد ذو البرج عند بنائه ، وساعده في ذلك عثور البعثة الانكليزية تحت رئاسة الاستاذ وولي (C.L. Woolley) على بقايا برج هائل حفظت فيه أجزاء من مدرجات السلالم الثلاثة في مدينة « أور » .

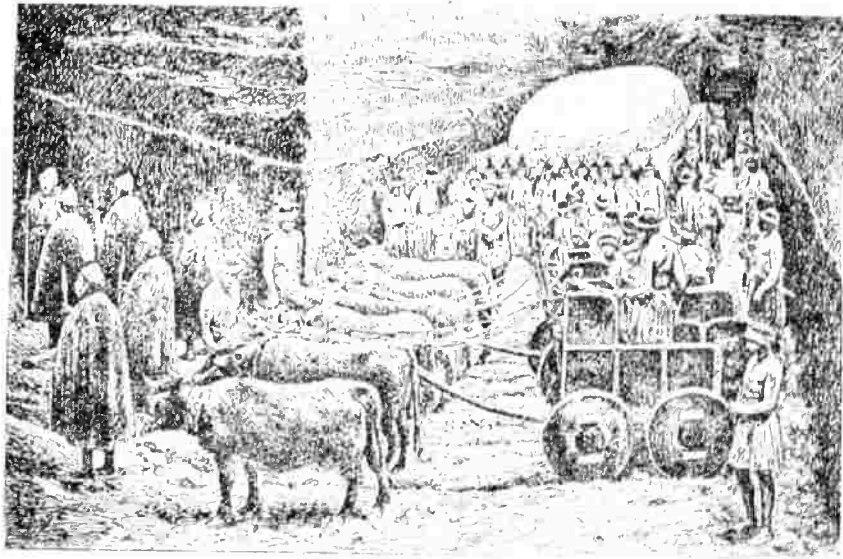
ومات كولدوي في أوائل عام ١٩٢٥ ووافى المشرفون على أعماله على السماح بنشر الرسم شكل ٧- في هذا الكتاب وهو رسم يمثل برج بابل كما كان في العصور القديمة ومما يجدر الإشارة اليه أن الاستاذ وولي وزملاءه نشروا رسما فحما لمعبد أور كما كان في أيام السومريين .



شكل : ٤٣ - منظر داخلي في أحد المعابد البابلية من (الألف) المالت ق.م
من حفائر المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو - صورة لما كان عليه المعبد في الزمن
القديم - من رسم سيتون لويد (Seton Lloyd)

هم يصبون فوقها الماء ، والتفسير المحتمل هو أن ذلك يمثل فضل الإله على البلاد فهو الذى يرسل الفيضان كل سنة فى النهر لتبقى الزراعة فى الأرض . ونحن نستطيع أن نفرض أنهم كانوا يقومون بعمل أمثال هذه الطقس الدينى ووضع الهدايا والقرايين أمام آلهة الأرض وما عليها من نباتات وآلهة الهواء والسماء والبحر ويصحبونها بأدعية ليأتى الماء وفيرا ويكثر المحصول . ويدعون أيضا أن تجنبهم الآلهة مصائب الفيضان المدمر مثل الفيضان الذى أرسله الإله مرة فخرّب كل شئ ، ذلك الفيضان الذى كان الناس يتناقلونه عن آبائهم وأجدادهم ووصلت أخباره إلى العبرانيين .

واختلفت ديانة السومريين عن ديانة المصريين فى نقطة هامة . وكان السومريون يدفنون موتاهم فى أغلب الحالات تحت أرضية هو المنزل الذى يعيشون فيه أو تحت



شكل : ٤٣ - أهل بيت أمير ، أور ، ينتظرون الموت على باب مقبرته
عُثرت البعثة الانجليزية الامريكية تحت رئاسه وولى أثناء حفائرها فى أور على اجسام هؤلاء الرجال والنساء والحيوانات وما معهم من أشياء على باب مقبره الامير . وقد تمكن الفنان الحديث بارشاد الاثريين من أن يخيل هؤلاء جميعا وقد وقفوا على استعداد لقتلهم ، وقف كل فى مكانه الذى عنر فيه على جثته . وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن قتلهم على هذه الصورة يمكنهم من الانتقال الى العالم الاخر ليظلوا فى خدمة سيدهم هناك .

إحدى الحجرات ، ولو أنهم في بعض الحالات كانت لهم جبانات خارج المدينة . أما عقيدتهم في الحياة بعد الموت فإنها كانت غامضة وكانوا يتصورون أن الموتي يعيشون في مكان مقبض تحت الأرض مليء بالظلام والتراب ، يذهب إليه الناس جميعا لا فرق بين صالح ومجرم ، وانتشرت بينهم عقيدة بأنه إذا مات إنسان فإنه سيحتاج في حياته الثانية إلى أهل بيته ، فحرصوا على أن يضعوا معه ما يجنبه الحياة في العالم الآخر بدون خدم وحيوانات . وقد رأينا في حفائر مقابر أمراء أور الأوائل جثث الحرس والخدم من رجال ونساء والثيران مازال مشدودا عليها في المركبات ، قتلوها جميعا على باب حجرة الدفن لتلحق بسيدها ولتستمر في خدمته بعد الموت .

وانتشرت بيوت الأهالي حول المعبد وكانت مستطيلة الشكل ومبنية بالطوب اللبن . وكان البيت - في أقدم العهود - يحتوى على قاعة رئيسية فيها أبواب توصل إلى الحجرات الأخرى . وفي العصور التالية كان يتوسط المساكن فناء غير مسقوف ولهذا كانت تلك المساكن ظلية غير حارة ومناسبة لمناخ البلاد ، وكان الضوء يغشاها من نوافذ على مقربة من السقف أو من أبواب ذات عقود عالية تفتح على فناء الدار . أما المدن فكانوا يقيمونها فوق أكوام صناعية ، ولم يكن يزيد عرض إحداها عن بضعة مئات من الأقدام ولكنها اتسعت مع مرور الزمن وزاد عدد سكانها ، ولكنها مع ذلك ظلت دائما محدودة ولم تنم واحدة منها نموا كبيرا كما نعهده الآن في المدن الهامة .

كان الطوب اللبن هو المادة الأساسية لجميع المباني العادية في العالم القديم ، وكانت مساكن الفقراء في بلاد الشرق القديم ، وما زالت حتى الآن ، تبنى بهذا النوع من الطوب . ويؤثر المطر كثيرا على جدران المساكن ولا تلبث أن تتهدم بل إن بعضها ينهار إذا أمطرت مطرا شديدا في يوم من الأيام . وإذا حدث ذلك في أيامنا الحاضرة

فإننا نرى أن أصحاب هذا المسكن يسوون الانقاض ويبنون مسكنا جديدا فوق مسطحها ، وهكذا فعل من سبقوهم خلال آلاف السنين فأصبحت المدن بعد مرور القرون كوما غالبا من الانقاض نعلوه البلدة التي يسكنها الناس . وهناك في كثير من بلاد الشرق ما زال السكان يعيشون فوق أنقاض مساكن آبائهم وأجدادهم ، ولكن هناك أيضا كثير منها هجره سكانه وأصبح أكواما خربة ، نرى من أمثالها الكثير في جميع بلاد الشرق الأدنى مثل كوم طروادة في آسيا الصغرى ، وتل مجدو في فلسطين ومدينة الفنتين في مصر .

وكانت الرُقم - أى اللوحات الطينية - التي تسجل حسابات المنزل والخطابات والمطالبات والإيصالات والمذكرات ، تظل تحت أكوام المساكن التي تهدم وتغطيها أنقاض الجدران ، أما المعابد والمباني العامة فإن الرقم التي تظل فيها كانت تحوى في أغلب الحالات مدونات حكومية هامة ، وفي مساكن الحكام وفي مكاتبهم توجد رقم تحوى قصص الحرب والغزو .

وكثيرا ما كان يهتم أحد الحكام بتدوين وثائق تتعلق بتشيد المعابد أو للقصور ووثائق عن انتصاراته وأعماله العظيمة ، وكان يضع أمثال هذه الرقم في أساس مبانيه حتى يتسنى لمن يأتى بعده من الحكام أن يجدها ، وليست هذه الرقم هي كل ما يمكن العثور عليه مدفونا تحت تلك الأكوام بل غالبا ما يعثر الآثريون هناك أيضا على قطع فنية منحوتة .

وتحت هذه الأكوام ما زالت بقايا المساكن البابلية ذاتها . ولكن الحجر لم يستعمل إلا نادرا في مباني تلك المدن التي تهدمت . ومع هذا فإن كوم أى مدينة منها غنى بما بقى فيه وهو مستودع للحضارة البابلية القديمة .

فمن خرائب المدن السومرية ، عرفنا كيف كانت الحياة في شوارعها المزدهمة وعرفنا أن أهم طبقات السكان هم الملاك الأحرار ، الذين كانوا يملكون الأراضي التي

يعمل فيها أرقاؤهم أو التجار الذين كانوا يملكون القوافل أو يرسلون بضائعهم في القوارب التي تغدو وتروح في النهر ، هؤلاء هم الطبقة المتوسطة ، ولكن الموظفين والكهنة كانوا الطبقة الإرسوقراطية في المدينة . وكانت كل مدينة من هذه المدن وما حولها من حقول ، تمتد إلى مدى بضع أميال وتكون وحدة سياسية مستقلة أو ولاية يحكمها ملك ، وتدلنا الوثائق المكتوبة وغيرها من الآثار على نوع الحياة التي كانت تسير عليها تلك المدن السومرية القديمة ، ونعرف منها أيضا ما أحرزته من تقدم مدى أربعة قرون . وقد بدأت هذه الوثائق منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل عام ٣٠٠٠ ق . م ، وفيها نرى فضل الحكام السومريين على تلك المدن رغم ما كان يعانيه الناس من فداحة الضرائب وما سببته من ظلم ، فقد كان حاكم المدينة ذا نشاط خاص في أيام الحرب ، زيادة عما تفرضه عليه الواجبات الدينية الكثيرة ذات الظاهر المتعددة ، وكان من أهم واجباته العناية بكل شئون الري ، لأن القنوات والجسور كانت في حاجة مستمرة إلى الإصلاح فلو أهملت لتعرضت الحقول إلى الجفاف والمحاصيل إلى الضياع وتنتشر المجاعة بين الناس إذا توقف جريان المياه .

وتقص علينا هذه الوثائق قصة أكثر من واحد من هؤلاء الحكام وتصوره لنا وقد خرج للحرب على رأس جنوده المدججين بأسلحتهم يسرون في كتائب ذات صفوف متراصة أو يحملون على أعدائهم في مركبات ثقيلة ذات عجلات أربع ، فقد كان السومريون أقدم شعوب العالم في تنظيم الحرب وجعلوا منه فنا رفيعا .

كانت الدويلات السومرية متعددة وحدودها متقاربة ، ولهذا كانت الحروب بينها كثيرة ولم تتمتع بالآمن فترات طويلة لأن كل دويلة منها كانت تحاول أن تستولى لنفسها على جزء من أراضى غيرها وكان سكان المدينة يسارعون وراء مليكهم لطرد المعتدين ، ولهذا فمن العبث أن نتحدث بشيء من التفصيل عن التاريخ

السياسى خلال هذا العصر المبكر .

وعثر على أجزاء من قوائم بأسماء ملوك بعض الدويلات السومرية ، وهى لأسماء الحكام الذين خلف بعضهم بعضا وكانوا القوى المسيطرة فى ذلك السهل الذى أصبح يسمى بلاد بابل فيما بعد ، وليس من المعقول أن نقبل تسلسل الملوك كما جاء فى القوائم ، لأنه كثيرا ما كان يحدث أن مدينتين أو أكثر كانتا قويتين فى مكان محدود أى قرية من بعضها ومعاصرة لبعضها ، فضلا عن ذلك فإن الزمن المدون فيها لمدة حكم بعض الملوك طويل جدا إلى حد لا يمكن تصديقه ، ولكن بالرغم من أن هذه الجداول ناقصة جدا فإنها تحوى بعض الحقائق التى أكدتها الاكتشافات الأثرية فى أور والوركاء ونيبور وأدب وغيرها . ولتأخذ مثلا مدينة أور التى ذكرت فى قوائم الملوك بأنها ثالث دويلة بعد الفيضان ، إذا سبقها كيش والوركاء .

ظهرت فى حفائر أور ونيبور نقوش تشير إلى حكام فى أور برزت أسماؤهم فى قوائم الملوك الخاصة بذلك العصر ، وكان أول ملك فى هذه المجموعة هو الملك « مس - أنى - بادا » ، وقد خلفه ابنه « آن أنى - بادا » ، الذى بنى معبدا صغيرا للآلهة البقرة فى ضاحية من ضواحي أور وسجل هذا العمل على لوحة من المرمر وضعت تحت أساس المعبد ، وحكم بعد « مس - أنى - بادا » أربعة ، وكان هؤلاء الملوك الخمسة هم الأسرة الأولى من ملوك أور .

وكشفت حفائر البعثة الإنجليزية الأمريكية فى خرائب مدينة أور عن مدينة بلغت حدا عظيما فى وقت مبكر جدا . فقد عثر رجال هذه البعثة تحت أنقاض المباني المهتمة على مقابر لأشخاص ذوى أهمية كبرى من المحتمل جدا أنهم كانوا حكام تلك المدينة ، تلك هى المقابر التى سبق أن تحدثنا عنها ورأينا رسمها فى شكل ٤٣ .

بنى أهل أور القدماء تلك المقابر من الطوب اللبن والأحجار وكانت محتوياتها تنافس

في الفخامة ما عثر عليه من مقابر بمصر في ذلك العهد . كان أحد الأمراء يضع كساء للرأس مصنوعا من صفائح سميكة من الذهب وهو على درجة كبيرة من الفخامة ومزخرف برسوم دقيقة جداً حفرتها يد الصانع الماهر، وكان هذا الأمير يعلق في حزامه خنجر آمن الذهب في غمد من الذهب المشغول المفرغ ؛ ووضعوا إلى جانبه في قبره أواني الذهبية التي كانت تزين مائدة طعامه أثناء حياته ، وكل هذه الأشياء



شكل : ٤٤ — أناء من الفضة لاحد ملوك المدن السومرية

يزين هذا الاناء شريطان يدوران حوله وفيهما زخارف محفورة تمثل أحسن تمثيل الفن الزخرفي في الحضارة السومرية المبكرة . ونرى في الشريط العريض نسرا له رأس أسد يقبض بمخالبه على أسدين يعض كل منهما تيتلا . وهذا التماثل في ترتيب رسم الحيوانات من أهم ما وصل اليه الفن السومري . وانتقلت هذه الرموز التي تمثل أزواجا من حيوانات ترسم متقابلة أمام بعضها انتقلت الى أوروبا وما زالت باقية حتى الان في الرسم الزخرفي وفي الرنوك أو في الرسوم المميزة لبعض الملوك والامم . وقد ظهر النسرين في أعلام ملوك النمسا وبروسيا وغيرها من أمم أوروبا وأخيرا وصل الى أمريكا ، وكلها مستمدة من النسرين السومري الذي يرجع تاريخه الى ما قبل خمسة الاف عام .

التي أخرجتها يد الصائغ ترينا المهارة الفائقة والدقة الفنية كما ترينا أيضا سمو الذوق في تصميم أشكالها .

وفي الاسرة الاولى في أور كان الملوك قد وصلوا في حضارتهم إلى الحد الذي مكّنهم من تشييد معبد الآلهة البقرة وتزيينه بتماثيل تستدعي الإعجاب ، إذ وضعوا على الافريز الذي امام المعبد تماثيل ثيران قوية مصنوعة من النحاس المصبوب ، بينما وقف نسر هائل له رأس أسد ناشراً ذراعيه فوق غزالين - وكلها من البرونز - كأنما يحمي بوابة المعبد . أما الحائط الأمامية فكان يزينها شريط عريض من الرخاف تمثل الرعاة وهم يحلبون الأبقار ، وغيرهم من العمال وهم يصفون اللبن ويصنعون الزبد . كان هذا الافريز في الأصل موضوعاً فوق لوح ، حرقاه العلوى والسفلى مصنوعان من النحاس ، أما صور الأشخاص والحيوانات والأشياء الأخرى فكانت منحوتة من قطع من المحار أو الحجر الجيري موضوعة في أرضية مصنوعة من طبقة رفيعة من الرفت الأسود التي ملأت الفراغ بين خطي النحاس . ولسنا نتوقع من تلك التماثيل الكبيرة التي تزين واجهة البناء أن تكون دقيقة الصنع مثل عمل الصائغ أو حفار الأحجار الثمينة ، ولكن النقوش وغيرها من الأشياء المنحوتة تظهر لنا الروح الفنية والمهارة الفائقة التي وصل إليها هؤلاء السومريون

وكان التفاهت الكبير على عمل الاختام سبباً في تقدم صناعة حفر الأحجار ووصولها إلى درجة رفيعة من التقدم ، فقد كان السومري يصمم بختمه على الطين اللين لتقوم مقام التوقيع باسمه ، وهذه الاختام الشخصية هي أقدم ما وصل إلينا من أختام وكانت تختلف في أشكالها فمنها المستدير ومنها البيضاوي الشكل ومنها ما كان مربعا أو مستطيلا . وفي أكثر الأحيان كانوا يرسمون على الظهر المحدودب للختم شكلاً لأحد الحيوانات .

ومع مرور الزمن ظهر ختم اسطواني الشكل ، حل محل النوع القديم من الاختام ، وكانوا يخفرون جوانب هذا الختم الاسطواني برسوم جميلة وأحيانا يكتبون عليها اسم صاحبها ، وكان تمرير هذا الختم الاسطواني على الطين اللين يقوم مقام التوقيع ، شأنه في ذلك شأن الختم الآخر ، ولم يلبث حفارو الاختام إلا قليلا حتى أصبحوا سادة ثابتي القدم في صناعتهم وما زال أثرهم باقيا حتى الآن في فنونا الزخرفية .

ويبدأ تاريخ سومر — حسب ما وصلت إليه معلوماتنا حتى اليوم — بالعصر الذى تنتمى إليه حضارة أور . فقد أثبتت النقوش أن « مس - أنى - بادا ، ملك له وجود تاريخي ، وهو أمر لم يتيسر لغيره من الملوك الذين حكموا قبله ووردت أسماءهم في قوائم الملوك ومن الجائز أن مدنا أخرى كانت مزدهرة في الوقت نفسه في سومر وكان تقدمها في الثقافة لا يقل عن مدينة أور ، ولنضرب مثلا بمدينة « لجش » التى كشفت الحفائر فيها عن عدد من المباني الهامة شبيهة بمباني الأسرة الأولى في « أور » ، ومن المحتمل أن سقوط أسرة أور الأولى كان نتيجة لحرب بينها وبين « لجش » ، لأن أحدحكام هذه المدينة يدعى أنه أخضع مدينة أور لسلطانه . ومع ذلك فإنه مسطور في قوائم الملوك « أن ملكة « أوان » استولت على « أور » ، وليس في تلك القوائم ذكر لحكام « لجش » .

أما مدينة « أوان » ، فإنها كانت في أرض « عيلام » ، ومن المحتمل أن « أور » كانت في ذلك الوقت تحت حكم أجني . من ذلك نرى أن محاولة معرفة الوضع الصحيح لتاريخ سهل « شنعار » ليس من الأمور السهلة ، ولن يتيسر لنا أن نصل إلى الحقيقة أو نرتب معلوماتنا المشوشة إلا بعد أن تمكنتنا الحفائر من العثور على المدن السومرية التى نجهل أماكنها حتى الآن . وقد أوصلتنا الحفائر التى تمت حتى الآن إلى كثير من المعلومات وعرفنا منها أن جميع الدويلات السومرية كانت تمر

في فترات غير آمنة يكثُر فيها النزاع عندما يهاجمها عدو فيغزوها ويمعن فيها نهباً ، ولكن رغم ذلك كانت هذه الدويلات تقضى أيام السلم بين فترات الحروب لتنهض من كبوتها وتستعيد مجدها .

وانتهت هذه المنازعات الداخلية بين دويلات سومر - ولو مؤقتاً - عندما هاجمها غزاة ساميون ، فقد بدأ بدو الصحراء يستقرون في سهل « شنعار » منذ بضعة قرون ، ومن المحتمل أن يكون بعضهم قد أتى من الشمال الغربي وسار في محاذاة نهر الفرات ، لأن عدداً كبيراً منهم استقر في ذلك المكان الضيق الذي يقترب فيه نهرا دجلة والفرات وتصبح المسافة بينهما نحو عشرين ميلاً .

وأخيراً أصبح هذا الجزء من السهل يسمى « بلاد أكّد » ، وأصبح اسم السكان الساميين « الاكديين » ، وهي منطقة ذات موقع تجارى ممتاز على الطريق الموصل بين بلاد الرافدين والبلاد الجبلية التي في الناحية الشرقية منها وكانت تجارتها مصدر ربح ورفاهية لسكانها .

الانقصار السامى الأول

«عصر سرجون»

ظهر فى القرن السادس والعشرين ق . م . فاتح من الجنس السامى فى «أكد»
إسمه «سرجون»^(١) ، كان ماهراً فى الحرب فتمكن من هزيمة السومريين وجعل
من نفسه سيداً على سهل «شنعار» بأكمله . هزم الدويلات السومرية وجنودها حملة
الحراب وخضعت له كل البلاد حتى مصب نهري الدجلة والفرات . ولم يقف الملك
سرجون عند هذا الحد بل بعث بجنوده إلى منطقة الخليج الفارسى لمهاجمة عيلام .
وقاد سرجون رجاله الأكديين الذين كانوا يتسلحون بالقسى من جبال عيلام
الشرقية ، واتجه بهم غرباً وصعد بمحاذاة نهر الفرات حتى وصل إلى شاطئ البحر
الأبيض المتوسط . وهناك قول ، بأنه أرسل سفناً لاختضاع جزيرة قبرص وربما
حدث صدام بين أسطوله وبين السفن المصرية التى كانت - كما سبق أن قلنا - تجوب
مياه ذلك البحر ، وترسو من آن لآخر فى موانئ المدن الفينيقية ؛ وليس مستحيلاً
أن تقود الهدفة فى يوم من الأيام إلى اكتشاف بعض الرقم التى كان يتبادلها ملك
بلاد الفرات فى ذلك الوقت مع ملك وادى النيل الذى كان يعيش فى قصره الفخم
فى منف .

ومن المحتمل جداً أن سرجون واصل زحفه بعد أن وصل البحر الأبيض
المتوسط فذهب شمالاً متوغلاً فى المناطق الشرقية من آسيا الصغرى لى يحمى
التجارة التى كانت مزدهرة إذ ذاك بين مناطق مناجم الفضة فى الشرق الجنوبى من
آسيا الصغرى وبين تجار بلاد الرافدين . كان سرجون أول زعيم فى تاريخ الجنس

١ - يضع بعض الباحثين الملك سرجون الأكدي فى القرن الرابع والعشرين ق . م . ويحددون عام

٢٣٥٠ ق . م . لبدء حكمه (المغرب)

السامى وكان أول حاكم يؤسس مملكة كبيرة فى غرب آسيا تمتد من عيلام فى الشرق إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتصل أيضاً إلى أعلى نهري دجلة والفرات فى الشمال والغرب . وتركت فتوحاته العظيمة فى غرب آسيا ذكرى لم يقو الزمن على محوها بالرغم من أن حياته انتهت بالقتل على أثر ثورة قامت ضده ، ولكن أحد أحفاده وهو ، نرام - سين ، استأنف فتوحاته وأقام آثاره فى الفرات الأعلى .

لم يبق الأكديون بعد استقرارهم فى الهلال الخصيب على ما كانوا عليه من بداءة ، بل أدخلوا تغييرات كثيرة فى أساليب حياتهم . فبنوا لهم مساكن ثابتة وبنوا بيوتاً من الطوب اللبن وتركوا خيامهم وبهذا لم يعد ميسوراً لهم أن ينصبوها فى المساء فى مكان ما ، ليطووها فى الصباح وينتقلوا إلى مكان آخر .

وقد كشفت الحفائر منذ سنين قريبة فى تل ، أشنونا ، عن المقر الرسمى لأحد الحكام المحليين فى عهد الملوك الأكديين ، فلم يعد ذلك الحاكم يقيم فى خيام كما فعل أجداده ، بل كان يقيم فى بناء فسيح الأركان فيه بهوان ، وكان الجزء الخاص بعائلته مكوناً من صالة كبيرة يليها حجرة أخرى وعدة حجرات للخدم ، وحجرة استقبال وحجرة للنوم ومرحاض وحمام . وعمموا نظام البالوعات فى جميع أجزاء القصر ، وكان المجرى الرئيسى لتصريف المياه مبنياً من الطوب اللبن مقبياً . وفى بعض المنازل الأخرى التى عاش فيها الأكديون ، عثر الباحثون على نوافذ ذات قضبان من الفخار وأبواب ذات عقود ، كما عثروا أيضاً على رسوم معمارية على الرقم ، وهذا دليل قاطع على عنايتهم بأمر البناء .

لم يكن لهؤلاء الأكديين معرفة بالكتابة فاقبسوا الكتابة المسمارية عن السومريين ليكتبوا بها لغتهم السامية وكانت هذه هى المرة الأولى التى كتبت فيها لغة سامية ، واقتبس الأكديين أيضاً التقويم السومرى والأوزان والمقاييس ونظام الأعداد وطرق التجارة . ولم يقف اقتباسهم من السومريين عند تلك

الأشياء التي تفيدهم في حياة السلم بل عرفوا منهم أيضاً ما يفيدهم في الحرب ، فتعلموا كيف يصنعون خوذات من الجلد أو من النحاس تزن الواحدة منها أكثر من رطلين . وكانت تلك الخوذات السومرية أقدم محاولة للانسان لاستخدام المعدن لحماية نفسه في الحرب ، وكانت هذه الخوذات نقطة الابتداء التي قادت الانسان فيما بعد إلى اختراع المراكب الحربية ذات الدروع المصنوعة من الصلب وأبراج المدافع في العصور الحديثة .

وكان فن النحت السومري مصدر إلهام للأكديين . وأمامنا مثل على ذلك وهو لوحة الملك « نرام - سين » المعروفة باسم لوحة النصر ، والتي عثر عليها في « سوسا » وتوجد الآن في متحف اللوفر ، وهي التي لا يشك أحد في أنها من أعظم الأعمال الفنية في العالم القديم ، ويزيد في أهميتها أنها أقدم عمل فني عظيم أخرجته يد فنان من الجنس السامي . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح حفارو الأحجار الثمينة من الأكديين منافسين لمن علموهم هذه الصناعة من السومريين ، وبما يدعو إلى الدهشة أن الفنانين الأكديين ركزوا اهتمامهم في أظهار التفاصيل الدقيقة في الاختام أكثر من اهتمامهم بالزخارف التي كان يعتنى بها السومريون .

وبعبارة أخرى اقتبس الفاتحون الأكديون حضارة السومريين المغلوبين ، واختلط الساميون بسكان المدن غير الساميين في سهل بابل ، كما اختلط النورمانديون بالانجليز في انجلترا ، وفي أوقات الحروب كان الجنود الذين هم من أصل سومري يحملون حراهم ودروعهم ويسيرون إلى جانب سادتهم الساميين الذين لا يحملون غير القسي ، وفي أوقات السلم لم يستطع السادة الساميون الاستغناء عن الكتاب السومريين الحاذقين .

اتحاد السومريين والساميين ملوك سومر وأكد.

حكمت عائلة سرجون نحو قرن ونصف من الزمان ، ولكنهم رغم نجاحهم في الحرب ، لم يستطع الملوك الأكديون منع الدسائس والانقسام بين رجال البلاط ، وكان عهدهم مليئاً بالثورات والاضطرابات ، وكان هناك مطالبون كثيرون بالملك إلى درجة جعلت الكاتب الذي كان يحرر قوائم الملوك عند وصوله لإثبات حوادث ذلك العهد ، أن يقع في حيرة يائسة فلا يزيد عن قوله : من هو الملك ؟ ومن هو غير الملك ؟ .

وزاد الطين بلة أن بعض سكان المنطقة الجبلية غزوا البلاد في ذلك الوقت التعس ، ولكن انتهى الأمر بهزيمتهم وطردهم ؛ وأصبح في استطاعة المدن السومرية أن تقف على قدميها مرة أخرى وتعيد سلطانها في البلاد . وأخيراً نهضت مدينة « أور » مرة أخرى ، وأصبحت لها الزعامة على غيرها . وأصبح للسكان الساميين الذين مضى عليهم عدة قرون في تلك المدن نفوذ في التنظيم الجديد ونرى بين أسماء الحكام المحليين كثيرين ممن تدل أسماءهم على أصلهم السامي ، وأصبحت الأمة الجديدة تدعى باسم « سومر وأكد » .

وازدهرت البلاد في تلك الأيام وبذل الملوك كل ما في وسعهم ليصلوا إلى أعلى مراتب الحضارة ، فحققوا ما نسميه الحضارة البابلية .

استمر حكم ملوك « سومر وأكد » نحو ثلاثة قرون ، كان القرن الأول منها عصر رفاهية تحت زعامة مدينة أور ، ثم تلاه قرنان مليانان بالتدهور فيما تلا ذلك ؛ وبالرغم من أن الحفائر لم تكشف عن كثير من المدونات الرسمية في أور ، فإننا نعرف أنها تقدمت

فى فتوحاتها نحو الشمال على طول نهر دجلة حتى شملت فتوحاتها بلاد آشور ، التى تظهر ابتداء من هذا الوقت فى صفحات التاريخ . وأرسلت أور الحملات الحربية شرقاً إلى عيلام وغرباً على امتداد الفرات فوصلت إلى البلاد التى كان يقطنها قوم ساميون كانوا قد بدأوا يظهرن أيضاً وهم الذين نعرفهم باسم الاموريين ،

كانت هذه الفتوحات سبباً فى تجمع بلاد متعددة فى غرب آسيا تحت حكم واحد وكانت النتيجة المترتبة على ذلك هى اتساع نطاق التجارة فى غرب آسيا على صورة لم يسبق لها مثيل .

ونذكر كيف كان الناس فى العهد الحجري يتاجرون فى الكهرمان والظران وغيرهما ، ثم تطور الناس بعد معرفتهم للزراعة فأصبحت كيلة القمح أو الشعير وحدة لتسهيل التعامل . فإذا اشترى أحد الناس من جار له قارباً يساوى قيمة عشرين كيلة من الشعير ، ففي استطاعته أن يعطيه ثوراً قيمته خمسة عشر كيلة ويتبقى عليه بعد ذلك خمسة كيلات يعطيها له .

وأخذت قيمة المعادن تزيد شيئاً فشيئاً وأصبحت وسيلة صالحة للتعامل وأساساً لقيم الأشياء التى يتبادلها الناس وكانت الفضة هى المعدن الذى أخذ يشق طريقه ليصبح فى مكان العملة . وكما كان المصريون القدماء يستعملون حلقات من النحاس منذ عصر الاهرام للمعاملات البسيطة وحلقات من الذهب ذات وزن معين للمعاملات الكبيرة ، فإن البابليين القدماء كانوا يتعاملون بقطع من الفضة وزن الواحدة منها ، شكل ، أى جزء على ستين من وزن الرطل (المينا) وكانت هذه القطع الفضية على هيئة قرص مستدير لا يزيد فى حجمه إلا قليلاً عن العملة الفضية التى قيمتها قرشان ؛ وأصبح ميسوراً للبابليين أن يحددوا الاسعار وقيم الأشياء بما يقابل ثمنها من قطع الفضة .

وكانت قيمة أى وزنة من الفضة ربع نفس الوزنة إذا كانت من الذهب ؛
ولكن قلت قيمة الفضة بعد ذلك عندما كثر تداولها بينهم .

واستلزمت التجارة تحرير كثير من الوثائق والحسابات وكانت كلها تكتب على
رقم كثير أما عشر عليها الاثريون عند حفرهم لمدن هذا العصر ، وإذا فحصنا هذه
الرقم نجد أنهم كانوا يستعملون صيغاً خاصة فى تحرير معاملاتهم التجارية مازلنا
نستعملها حتى الآن ، وكانوا بوجه عام أول شعوب العالم الذين جعلوا تحرير
المعاملات المالية أساساً فى الاعمال التجارية .

ولم يلزم البابليون أنفسهم باتباع أساليب خاصة فى التجارة فقط ، بل ألزموا
أنفسهم أيضاً باتباع قواعد خاصة فى بعض العادات الإجتماعية ، وانتهى بهم
الأمر أن أصبحت هذه القواعد قوانين تنظم الحياة بين الناس ويجب عليهم طاعتها .
وأصبحت مدينة أور قوية غنية فى فترة قصيرة بعد أن تمكنت من ضم منطقة
واسعة إليها ، منطقة يحكمها قانون ينظم شئونها ، وتزدهر فيها الصلات التجارية مع
شعوب أخرى بعيدة عنهم .

ونرى أثر ذلك كله فى المعبد الذى شيده ملوك أور ، والذى كشفت عنه
الحفائر حديثاً وثبت منها أنه بنى فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهو
دليل مادى قوى على ثراء المدينة فى ذلك العهد .

ولم تكشف الحفائر حتى الآن عن آثار أدبية فى مدينة أور أثناء حكم ملوك
سومر وأكد ، ولكننا نكاد نجزم بأن ذلك التطور الأدبى الذى نراه فيما بعد
فى المدن الأخرى التى ورثتها ، إنما بدأ فى أيام ملوك أور .

ولم نصل إلى أيدينا الرقم الأصلية التى تحتوى على آداب ذلك العصر ولكن
كتب المدارس وبعض الرقم التى كان يتمرن فيها التلاميذ هى التى أبقي عليها الزمن
وأصبحت فى أغلب الحالات مصدرنا الوحيد لدراسة بعض الوثائق الأدبية الهامة ، إذ
كان فى المدارس رقم تحوى مؤلفات فى الأجرومية وقواميس للاصطلاحات وجداول

للعلامات الكتابية ، وكان في استطاعة التلاميذ أن يذاكروا الحساب والأجرومية في الرقم التي في المدرسة ، وكان يستطيع الواحد منهم أن يذهب إلى الرفوف التي يوضع فوقها الرقم المختلفة ، فيجد أبحاثاً في الطب ومعالجة الأمراض التي كانوا يعتقدون أن السبب الأساسي لظهورها هو احتلال الشياطين والأرواح الشريرة لجسم الإنسان .

وأراد أهل سومر وأكد أن يجدوا جواباً لما يطرأ على أذهان الناس في أول جهودهم من تساؤل عن الموت والحياة ، فوضعوا قصصاً بسيطة تحدثوا فيها عن مخاطر الراعى « إاتانا » عندما أصاب أغنامه العقم ولم تعد تلد له أحمالاً صغيرة . صعد « إاتانا » على ظهر نسر واتخذ طريقه نحو السموات باحثاً عن عشب أصل



شكل : ٤٥ - إاتانا يطير في السماء

يجلس إاتانا على ظهر نسر يطير وقد وضع ذراعه حول عنقه ونرى فوق إاتانا يمين الصورة منظر القمر كما نرى في الأرض كلبين ينبجان وفي يسار الصورة نرى راعياً ومعه ثلاث عنزات ، وأمام العنزات يسير شخص آخر وقد رفع ذراعه ، وكلهم بما فيهم الحيوانات ينظرون مذهوشين نحو إاتانا الذي راوه بأعينهم يطير في السماء

وفي الجزء العلوي من الجهة اليسرى نرى فخارياً يصنع بعض الاواني وأمامه خباز يصنع خبزاً مستديراً .

وهذا الرسم مأخوذ من طبعة أحد الاختام فوق رقيم من الطين

الحياة . وبينما كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق رغبته ، سقط ثانية على الأرض ، وهذه القصة هي أقدم ما عرفناه عن محاولة الإنسان للطيران .

وهناك قصة أخرى ، هي قصة صياد السمك « أدايا » الذى اشتدت به ثورة الغضب ، فكسر جناح آلهة الرياح الجنوبية عندما قلبت قاربه فى الماء فدعاه إله السماء إلى عرشه وسأله عما حدث ثم رضى بعد ذلك عنه ، وقدم إلى « أدايا » خبز الحياة وماءها ، ولكن « أدايا » كان سىء الحظ فأعماه الغضب وملأت الشكوك نفسه فرفض أن يأكل ما قدمه الإله له ، وبذلك ضيع على نفسه وعلى بنى الإنسان جميعاً فرصة الحصول على الكنز الأكبر وهو الخلود فى الحياة . ولو أمعنا النظر فى تحليل هذه القصة لوجدنا أنها محاولة لحل لغز الموت الذى يشغل دائماً ذهن البشرية . وهناك قصة أخرى ، هي قصة البطل « جلجَمِش » الذى خاطر وأتى أعمالاً عظيمة ولكنه فشل أيضاً فى الحصول على الخلود .

وفشل كل من حاولوا الوصول إلى سر الخلود ، اللهم إلا واحداً منهم فقط ، وقصته من القصص الغريبة ، نقرأ فيها كيف نجما هو وزوجته فى فلك بعد الطوفان العظيم ، ثم أخذهما الآلهة بعد ذلك إلى النعيم المقيم . ولم يؤمل ملوك سومر وأكد فى حياة سعيدة بعد الموت شأنهم فى ذلك شأن عامة الناس ، لأن الخلود كان وقفاً على الآلهة دون سواهم .

وعرف العبرانيون فيما بعد بعض هذه القصص ، وخاصة ما كان يختص منها بخلق العالم وبالطوفان ، وزاد على النص الاصلى بعض تعبيرات وتأثيرات من الحياة السومرية والحياة السامية ، ووجدت هذه القصص طريقها إلى كل من اللغتين السامية والسومرية .

وكانت أكثر هذه القصص تكتب باللغة السومرية القديمة التى كانوا يعتبرونها لغة لها قداستها ، واستمرت بينهم كلغة مقدسة مثل اللغة اللاتينية فى وقتنا الحاضر

فى الكنيسة الكاثوليكية ، وبالرغم من زوال النفوذ السياسى للبدن السومرية فإن القصص الدينية ظلوا يكتبونها باللغة السومرية قروناً عديدة بعد أن انصرف الناس عن الكلام بها ، وماتت من بينهم كلغة للتخاطب .

ووصلت الحضارة أثناء حكم ملوك سومر وأكد إلى أعلى مراتبها عندما امتزجت الحضارتان السومرية والأكدية ، وأصبحتا حضارة واحدة لها طابعها المميز وهى ما نسميه الحضارة البابلية .

كان هذا العهد هو أعظم العهود فى تطور حياة الانسان فى سهل شنعار الذى كان عهداً مطبوعاً بطابع التوسع التجارى . ولم ينس الناس فى مستقبل الأيام ما كانت عليه مدينة أور من فخامة ، وعظمة وعندما أخذ العبرانيون بأسباب الحضارة فى فلسطين كانوا يفخرون بأنهم من نسل إبراهيم الذى كانوا يعتقدون فيه أنه كان من سكان مدينة « أور » عاش فيها فى أواخر أيام العصر الذى كنا نتحدث عنه .

الانحصار السامي الثاني - عصر هامورابي « والعصر الثالث »

لم يكد يبدأ الألف الثاني ق . م . حتى سقطت مملكة سومر وأكد ولم تسترجع المدن السومرية بعد ذلك التاريخ مكانتها في الزعامة السياسية .

ولم يكن القضاء على دويلة «أور» في نهاية القرن الثالث والعشرين ق . م راجعا إلى الحروب التي كانت بينها وبين الدويلات المنافسة لها فحسب، بل كان راجعا أيضا إلى غزو أجنبي رزئت به البلاد من الشرق والغرب في وقت واحد فقد جاء العيلاميون من الشرق واستولوا على المدن السومرية وأسروا آخر ملوك «أور» ونهبوا مقابر الملوك السابقين ، وجاء من الغرب قوم آخرون من الشاميين ، وهم « الأموريون » ، وبدأوا يغزون بلاد «أكد» ، وتمكن بعض زعماء الأموريين في النهاية من فرض سلطانهم على بعض المدن في الشمال ، وفي منتصف القرن الحادي والعشرين ق . م . نصب أحد هؤلاء الزعماء نفسه ملكا على بابل التي لم تكن حتى ذلك الوقت بلدا له أهمية سياسية كبيرة .

واستطاع هؤلاء الحكام أن يظلوا أصحاب السيادة مدى ثلاثة قرون وجعلوا من مدينتهم «بابل» في النهاية مركزا هامما تجمعت فيه قوتهم الحربية وحضارتهم وأصبح اسمها علما على سهل شنعار القديم الذي سمي منذ ذلك الوقت باسم « بلاد بابل » . ولم يتيسر للملوك الأموريين الأوائل الذين حكموا في بابل ، الاستيلاء على كل بلاد سومر وأكد ، واستمر صراعهم مع العيلاميين وقتا طويلا دون أن يحرزوا نصراً حاسماً عليهم .

وأخيراً جاء اليوم الذي تولى فيه العرش ملك يسمى « هامورابي » ، وكان ترتيبه السادس من ملوك بابل ، كان ملكا ممتازا قضى السنوات الثلاثين الأولى من حكمه

في تدعيم مركزه في الجزء الشمالى من بلاد بابل ، ثم التفت نحو الجنوب فانتصر على الحاكم العيلامى الذى كانت مدن الجنوب تحت إمرته ، وبذلك أصبحت مدينة بابل ، فى عهده المدينة الأولى فى البلاد .

تولى حمورابى العرش فى عام ١٩٤٨ ق . م (١) وظل سبعة وخمسين عاما على العرش ، قضى منها الأعوام الاثنى عشر الأخيرة فى هدوء وطمأنينة بعد أن دانت له الأمور فالتفت نحو توطيد ذلك الملك فأنبت أنه بطل فى السلم ، كما كان بطلا فى الحرب ، وخلد اسمه فى التاريخ على أنه ثانى حاكم عظيم من الجنس السامى بعد الملك سرجون .

رمى حمورابى بناظره إلى تلك المدن البابلية التى كانت تعج بالحياة وصمم على أن ينظم أمورهما على صورة لم تعرفها من قبل فتم له ما أراد . وأهم المصادر التى أمدتنا بالمعلومات عن أعمال هذا الرجل العظيم ، هما أثنان ، يرجع تاريخ كل منهما إلى مايقرب من أربعة آلاف عام ، وأولهما مجموعة خطاباته ، وثانيهما اللوحة العظيمة التى سجل عليها قوانينه . فلأول مرة فى التاريخ نستطيع أن نعرف من تلك الخطابات دقائق الحياة المليئة بالعمل التى كان يحياها أحد الحكام الشرقيين فى آسيا . فترينا تلك الخطابات الملك حمورابى جالسا فى قاعة الحكم فى قصره فى بابل وقد جلس كاتم سره إلى جواره . وأخذ الملك يملى عليه ما يريده من رسائل فى جمل مقتضبة واضحة المعانى تحمل أوامره إلى ولاته الذين عينهم على المدن السومرية بعد أن أصبحت

١ - هذا هو التاريخ الذى فضله المؤلف . ولكن هناك آراء مختلفة فى تاريخ تولى حمورابى الملك ويرى « دلابورت » أنه تولى الملك فى عام ٢٠٠٣ ق . م .

(Delaporte, Le Proche-Orient Asiatique, p. 120-3e Ed. 1948)

ولكن مودتجات وهو من أشد المؤمنين بالتقويم القصر الذى نقل بأكبر من مائتى سنة عن التقويم الطويل يرى أنه تولى حمورابى للملك كان فى عام ١٧٢٨ ق . م .

Scharff-Moortgat, Aegypten und Vorderasien in Altertum, München 1950, p. 113 (المغرب)

ولكن جيل مودتجات كان أولبرايت من المؤمنين بوجود التزول بتاريخ حكم حمورابى إلى عام ١٨٠٠ ق . م . بدلا من عام ألفين . (Albright, BASOR, 77, 1940)

خاضعة له . فيأخذ كاتم السر قلبه من الكيس الجلدى المعلق فى حزامه ويسطر به فوق الرقيم الصغير سطورا من الكتابة المسماية . وبعد أن ينتهى الكاتب من عمله يرش الرقيم اللين بحفنة من التراب الجاف ليمنع الغلاف الطينى الذى يلف به من الالتصاق بالكتابة ، ويكتب بعد ذلك عنوان المرسل اليه ثم يبعث بالرقيم ليوضع فى الفرن .

ويأتى الرسل إلى الملك بخطابات مماثلة ، يفتحها كاتم السر الذى يثق فيه سيده فيكسر الأغلفة أمام الملك ويقرأ بصوت مرتفع ما يبعث به موظفوه من جميع أنحاء المملكة . ويملى الملك ردوده فى الحال . فمثلا لقد فاض نهر الفرات وسبب بعض الخسائر وتوقفت الملاحة بين مدينتى « أور » ، « لارسا » ووقف صف طويل من السفن لا يستطيع السفر ، فيبعث الملك برده توأ ، أمرا حاكم « لارسا » بتطهير المجرى فى الحال لتواصل السفن سيرها .

ويهتم الملك اهتماما خاعا بقطعان أغننامه ، وكأنما هى الغريزة البدوية ما زالت فى دمه ، فيأمر الموظفين ليجيئوا إلى بابل للاحتفال بقص أصواف الأغنام فى فصل الربيع ، كأنما مثل هذا الحادث عيد من الأعياد الهامة .

ويتقدم التقويم شهرا كاملا عن الموسم المعتاد ، فيرسل الملك خطابا دوريا إلى جميع الحكام قائلا : « نظرا لظهور عجز فى السنة . احتسبوا الشهر الذى يبدأ الآن أنه شهر أيلول الثانى . . ولكنه يلفت نظر الحكام إلى أن جميع الضرائب التى تكون مستحقة فى الشهر الثانى يجب أن تحصل ولا تؤجل إلى الشهر الذى يليه ، لأن تقديم الشهر يجب ألا يتسبب عنه أى تأخير فى الضرائب .

ويلفت الملك نظر جامعى الضرائب المتأخرين فى التحصيل ويذكرهم بشدة إلى ضرورة تأدية واجبهم ، والانهاء منها دون أى تأخير . ويوافق الملك على توقيع العقاب السريع على موظف متهم بالرشوة ، ويمكننا أن نتصور الملك وقد اكفر

وجهه وهو يأمر باعتقال ثلاثة من موظفى باب قصره الذين غضب عليهم . وفى أكثر من مرة يذكر الملك حاكم د لارسا ، بضرورة تنفيذ ما يصدر اليه من أوامر على أسرع وجه .

وكم من متظلم كان يأتى إلى الملك إذا أعياه نيل حقه على أيدي القضاة فى مدينته . فكان هؤلاء المتظلمون يأتون إلى حمورابى وهم واثقون من حسن معاملته ولا يرد أحدهم خائباً . وها هو رئيس خبازى المعبد ، تصدر اليه أوامر الملك بأن يسافر إلى مدينة د أور ، ليعنى بأمر أحد الأعياد الدينية . ولكنه يتظلم من هذا السفر لأنه سيحرمه من وجوده فى بابل عند نظر قضية له ، ويرى حمورابى أن الرجل على حق فى أمر بتأجيل القضية .

ولا يقل اهتمام حمورابى بالشئون الدينية عن اهتمامه بإقامة العدل ، لأن كثيراً من خطابهات التى كان يملئها كانت تختص بملكات المعابد وإدارتها التى كان يظهر دائماً عنايته بها .

كانت عينه لا تغمض ولا تنام ، مهتماً بكل شئون البلاد ، قوى الشكيمة ، سريع البت فى الأمور ، أدرك ذلك الملك أن الضرورة تقضى بتوحيد القوانين وقواعد المعاملات التجارية فى البلاد . وكان بعضها يتعارض مع البعض ولهذا جمع كل القوانين والمعاملات المدونة ، سواء كانت لتنظيم التجارة أو الحياة الاجتماعية منذ أيام السومريين القدماء .

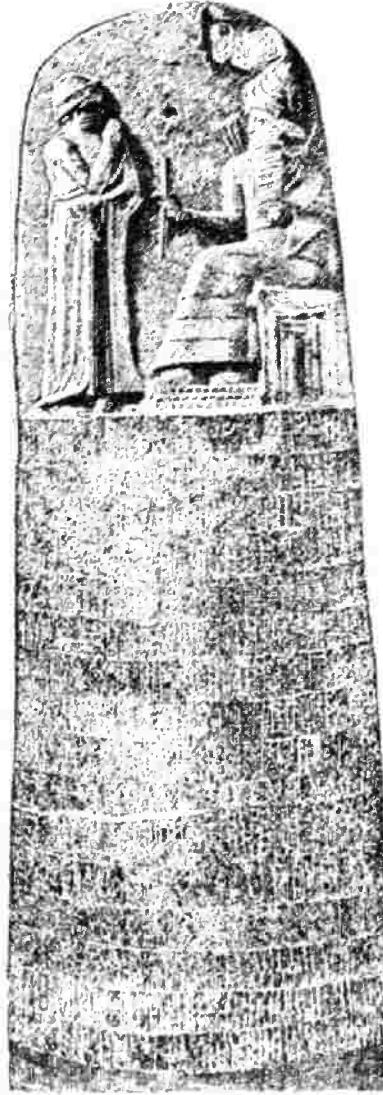
بوب حمورابى تلك القوانين وأدخل عليها تحسينات وتعديلات كثيرة كما ألهمته حكمته ثم جمعها كلها فى مجموعة واحدة من القوانين . ولم يكتبها باللغة السومرية مثل بعض القوانين القديمة بل كتبها باللغة السامية التى كان يتكلم بها الأكديون والأموريون ، ثم أمر بنقشها على لوحة عظيمة من الحجر ، نراه فى أعلاها يتلقى القانون من إله والشمس ، وضع هذه اللوحة وعلى صفحتها القانون الجديد فى معبد الإله العظيم

« مردوخ ، فى مدينة بابل ، وأبقى الزمن على هذه اللوحة حتى الآن ، وهى تحوى دون شك أقدم مجموعة من القوانين القديمة ، وكثيرا ما يعثر رجال الآثار على بعض أجزاء من قانون حمورابى مكتوبا على رقم كانت تحفظ فى قاعات المحاكم للرجوع اليها .

وينص هذا القانون على أن ينال الأراامل واليتامى والفقراء حقوقهم وألا يقع عليهم ظلم ، ولكن فى الوقت ذاته يحتفظ بكثير من الآراء القديمة التى تدل على بساطة القلب ، ومن أظهر ما فيه مبدأ معاقبة المعتدى بأن يوقع عليه الضرر الذى سببه . وهو مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » ، وهو مبدأ ، كثيرا ، ما تسبب فى الظلم عند تطبيقه تطبيقاً حرفياً . فمثلا إذا انهار منزل وقتل ابن الساكن فيه فإن عقوبة ذلك قتل ابن الشخص الذى بنى البيت ، فيذهب ضحية ذلك شخص برىء هو الابن المسكين .

ورأى حمورابى ضرورة تنظيم أمور الزواج والاتفاق الشرعى بين الرجل والمرأة ، فأفسح لهذا الموضوع مكانا فى قوانينه . فاحتلت المرأة مكانا ممتازا فى بلاد بابل القديمة - كما كان شأنها أيضا فى مصر ، وكان فى استطاعة المرأة أن تمارس التجارة لحسابها الخاص ، وكان من بين النساء من احترفت مهنة الكتابة ، وكانت البنات تذهب إلى المدارس لتلقى العلم جنبا إلى جنب مع الصبية .

وجاءت إصلاحات حمورابى بشراستها فانتعشت البلاد انتعاشا لم تعرفه من قبل ، وكانت حاصلات البلاد الزراعية وخاصة الحبوب والبلح هى المصدر الهام للثروة ، ولكن كان لدى السكان أيضا قطعان من الأغنام والماشية تدمهم بالجلد والصوف ،



شكل : ٤٦ - قوائم حمورابي - أقدم مجموعات القوانين •

هذه القوانين منقوشة حول عامود من حجر الديوريت ارتفاعه ثمانية أقدام تقريباً ومجموع الكتابة أكثر من ٣٦٠٠ سطراً • وفوق الكتابة نرى حمورابي إلى اليسار واقفاً أمام إله الشمس الجالس في الناحية اليمنى يتلقى منه القوانين

وأصبحت الأخيرة صناعة من الصناعات الهامة لأن الملابس الصوفية كانت منتشرة الاستعمال بين سكان آسيا الغربية .

كان أهل بابل في ذلك العهد يصنعون آلاتهم وأساحتهم من البرونز ، ولم يكونوا ليجعلوا وجود الحديد وإنما كان هذا المعدن نادراً إلى درجة لم يجعل له أى شأن هام في الصناعة ، ولم يعم استعمال هذا المعدن إلا بعد ألف سنة أخرى .

وحافظ الجيش على هدوء البلاد وعلى سلامة حدودها ، وكانت قوافل الحمير التي تحمل تجارة البابليين تذهب من مدينة إلى أخرى ومن قوم إلى آخرين وهي آمنة مطمئنة . وكانت هذه الأسفار أمراً عادياً في بلاد الفرات الأعلى فنشأت مراكز للتجارة ، وهذه مدينة من مدن الفرات أطلقوا عليها اسم « هرّان » ، أو « خرّان » ، وهي مشتقة من الكلمة البابلية « خرّانو » ومعناها « رحلة » . وكثيراً ما كانت بضائع التجار تملأ الأحواش مكدسة في الغرائر ، وقد ميزوا كل حمل منها بلوحة صغيرة من الطين عليها اسم صاحبها . وكانوا يلقون بهذه العلامات التجارية عند فتح تلك الغرائر ، ويعثر الحفارون على كثير منها الآن في خرائب المدن ونرى على أحد وجهيها اسم التاجر وعلى الوجه الآخر طبعة الحبل الذي كان يحزم الغرارة .

ووصلت هذه العلامات التجارية وكشوف الحساب التي كانت تصحب الأحمال ، إلى مناطق بعيدة ، وكان يقرؤها التجار المحليون في المدن السورية وفي البلاد الواقعة خلف ممرات الجبال في الشمال . وهكذا أخذت الكتابة المسمارية البابلية تشق طريقها تدريجياً في بلاد آسيا الغربية وبدأ تجار سوريا وكبادوسيا Cappadocia في آسيا الصغرى يكتبون كشوف الحساب والمطالبات التجارية وخطاباتهم على الرقم كما كان يفعل البابليون . وانتشر نفوذ حمورابي التجاري في غرب آسيا ، وظلت ذكراه بعد موته بأكثر من ألف سنة يرددها

سكان سوريا وفلسطين في أيام العبرانيين^(١)

وأصبحت طبقة التجارية وكانوا يسمون في بعض الأماكن ، الحكام ، ولكن المعابد ومالها من موارد عظيمة كانت مركز الحياة التجارية ، إذ كانت مهيمنة على أراض كثيرة ، وكانت لها تجارة واسعة كما كانت تقرض النقود فإن إقراض النقود كان أمراً عادياً ولكن أسعار الفائدة كانت مرتفعة ، إذ كان سعرها على قروض الفضة عشرين في المائة في السنة تدفع على أقساط شهرية ، ولما كثر تداول الفضة وأصبحت كثيرة في أيدي الناس قلت قيمتها ، وأصبح استعمال الذهب قليلاً ونادراً وكانت قيمته من اثنتي عشرة إلى خمس عشرة مرة من قيمة الفضة .

وصارت المصالح التجارية هي المصالح ذات الأثر الفعال في الحياة البابلية ، بل ووصل أثرها إلى الدين أيضاً ، فكانت العبادة كما ذكرنا مكانة كبيرة في الحياة التجارية ولم تسع الديانة لمطالبة الأغنياء والأقوياء بما عليهم من حقوق للفقراء والمساكين ويحتم علينا الآن أن نذكر أن طقوس العبادة كانت تحوى بعض صلوات وأدعية اعترافاً بوجود فكرة الخطيئة وضالة الإنسان ، ولكن كانت المنفعة الكبرى للديانة تتركز في أن الإنسان كان يستطيع أن يحصل من الآلهة على ما يريد من منافع حقيقية وأن يتجنب غضبها .

وظل الناس يعبدون الآلهة السومرية القديمة ولكن زعامة بابل السياسية مكنت سكان تلك المدينة من وضع إلههم السامى ، مردوخ ، فوق جميع الآلهة الأخرى ، وزجوا باسمه في جميع الأساطير القديمة ، فظهر اسم ، مردوخ ، مكان أسماء بعض الآلهة السومريين القدماء الذين كانوا يلعبون أدواراً هامة في تلك الأساطير .

١ - انظر سفر التكوين حيث ورد ذكر « أمراييل » والمفسرون أنه تحريف لاسم حمورابى كما نطق به أهل غرب آسيا .

وفي الوقت عينه احتلت الإلهة ، عشتار ، السامية مكانها كآلهة الرئيسية في أملاك بابل ، وكانت ، عشتار ، العظيمة آلهة للحب . وانتقلت عبادتها بعد ذلك إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وأطلق عليها اليونانيون اسم ، أفروديت ، . ومن الأشياء التي منحها الآلهة موهبة التنبؤ بالغيب ، وكان هذا الفن يسمى التنجيم ، وكان الكاهن الذي يقوم به يطلقون عليه اسم المنجم .

ومنذ العصور القديمة ، في عهد ملوك سومر وأكد ، كان المنجم الماهر يستطيع أن يفسر العلامات الغريبة في كبد شاة تذبح كقربان ، وكان السائل يؤمن أن في استطاعة هذا المنجم أن يحدثه عما يمكنه له الغيب ، وكان في استطاعة المنجم أن ينظر إلى أماكن النجوم والكواكب ويعرف منها ماذا أمر به الآلهة ليحدث في مستقبل الأيام ، وأخذت هذه الأساليب في فن التنجيم طريقها إلى الغرب فانتشرت فيه ، فكانت قراءة الأكباد أمراً شائعاً في روما فيما بعد ، وتطورت قراءة النجوم فيما بعد في أيام السكلدانيين وصارت علماً قائماً بذاته هو علم التنجيم الذي كان أساساً لعلم الفلك .

ولم يكن من الميسور تمرين الناس على أمثال هذه الأعمال في المعابد أو إعداد الكتاب للأعمال التجارية أو لإدارة الحكومة دون وجود المدارس التي كانت في المعابد أو كانت ملحقة بها . وكشفت الأبحاث الأثرية عن بناء مدرسة من عهد حمورابي ، وعثر في بقاياها على الرقم التي كان يتمرن فيها الصبية والبنات ملقاة على أرض الحجرات بعد أن ظلت في مكانها قرابة أربعة آلاف سنة ، وفي هذه الرقم نرى كيف كان الطفل يقضى الوقت الطويل الشاق في التعليم الذي كان يبدو به فهم وكتابة نحو ستمائة علامة مختلفة .

كان اللوح الذي يتمرن عليه التليذ مصنوعاً من الطين اللبن وكان باستطاعته أن يحو ما كتبه إذا مرر عليه قطعة من الخشب أو الحجر . وكان التليذ يقبض علي

قلبه بين أصابعه ويخط سطورا طويلة من ضغطات مفردة ، يكتبها في أوضاع ثلاثة أفقية ورأسية ومائلة ، فإذا ما تعلم ذلك وأصبح يجيد استعمال قلبه عليه مدرسه كيف يكتب العلامات التي كانت كل منها تتكون من أكثر من ضغطة واحدة ، وكانت الخطوة التالية بعد ذلك هي أن التلميذ يتعلم كتابة الكلمات ثم الجمل القصيرة . وما كان يكتبه هؤلاء التلاميذ القدماء حكم وأمثال قيمة ، وهذا واحد منها يبين قيمة تقدير البابليين لفض الكتابة : « إن من يتفوق في كتابة الرقم سيضىء كالشمس » ، وبمثل هذا كانوا يشجعون الصبية أثناء عملهم الطويل الشاق في تعلم الكتابة .

ولم يصل إلينا إلا القليل النادر من الأعمال الفنية أو المعمارية التي ازدهرت في ذلك العصر ، ويرجع ذلك إلى تحطيم مدينة حمورابي التي لم يبق منها قلب طوب واحد في مكانه ، ولكننا نعرف مما كشفت عنه الحفائر في المدن الأخرى أن بعض القواعد المعمارية التي كانت معروفة في عهد السومريين ظلت متبعة بعد أن دخل عليها شيء من التطور ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك فإننا ما زلنا حتى الآن نستعمل بعضها ، ولنضرب مثلا بالعقد الذي رأينا أنه كان معروفاً في مدينة « أور » وأنهم استعملوه في بناء مقابر ملوكها الأوائل . وكذلك المصارف المقبية التي ظهرت في العصر الأكدي . وفي عهد ملوك سومر وأكد كانت بوابات المنازل الخاصة مبنية على طراز العقد ، فلما جاء عصر الإمبراطورية الآشورية أصبح للعقد شأن بارز في هندسة واجهة القصر الملكي .

كان أهم تجديد معماري في العهد المبكر للمملكة البابلية هو انتشار المعبد ذي البرج ، ومع ظهور هذا النوع من المباني ظهرت أيضاً فكرة تزيين الأسوار ببناء دعائم لها على مسافات متقاربة منتظمة بحيث تبدو فيها تنوء يليه انخفاض ثم تنوء وهكذا recessed panel ، وكان هذا الطراز معروفاً للبنايين في بلاد الرافدين منذ عهد السومريين ، كما تراه أيضاً في مباني الطوب لدى كثير من شعوب الغرب .

وأقام البابليون الأول أعمدة من الطوب أو الخشب غطوها بالفسيفساء ، ولكنهم لم يكثروا من الأعمدة بوجه عام بل كان استعمالها محدوداً في طرزهم المعمارية .

ولم يخلف عصر حمورابي وراثة رسوماً أو تماثيل فنية كثيرة . فنحن نرى النقش المرسوم على الجزء العلوى من قانون حمورابي على حجر الديوريت ويمثل الملك وهو يتلقى القوانين من إله الشمس ، فنرى كيف نجح الفنان في إعطاء هذا النقش مسحة من الهيبة والتأثير ، ولكننا نرى أيضاً أن البابليين كانوا يلفون أجسامهم في ملابس صوفية ثقيلة ولهذا لم يتيسر للمثال الفرصة لإظهار محاسن الجسم الإنسانى .

وإذا أردنا التحقق من نجاح المثاليين في إعطاء صورة صحيحة للشبه فإننا لا نستطيع ذلك ، لأن تماثيل الأفراد تكاد تكون متماثلة لافرق بين واحد وآخر . وتضاءلت أيضاً دقة صناعة الأختام بعد أن بلغت أوجها في عصر الملك سرجون . وبالرغم من الإقبال على هذه الأختام كسلعة تجارية فإن صناعتها في عصر حمورابي كانت قد بدأت في الانحطاط .

وكان هذا الانحطاط في الفن نذيراً لما كان على وشك الحدوث ، فإن الأمة البابلية التى أحسن حمورابي تنظيمها لم تكمد تعمر طويلاً بعد وفاته ، فقد نزل قوم غزاة من الشرق على سهل بابل ، وكان وفودهم تدريجياً فى هجرات متتالية إلى بلاد الهلال الخصيب وخاصة بعد عام ١٩٠٠ ق. م . واستقروا أخيراً فى بابل . وهؤلاء القوم هم الكاسيون ، الذين لم يستطع خلفاء حمورابي صدهم .

وفى الوقت الذى زاد فيه عدد السكان الكاسيين ^(١) إلى درجة كبيرة منيت

١ - من المحتمل أن يكون الكاسيون هم الذين أحضروا كثيراً من الخيل معهم إلى بلاد بابل - ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الخيل لم تظهر فى مصر إلا بعد ذلك الوقت ببضعة قرون .

بلاد بابل لسوء حظها بغزاة آخرين جاءوا من الشمال الغربى وتقدموا جنوباً فى محاذة نهري الدجلة والفرات حتى احتلوا بابل ونقلوا ما غنموه منها إلى بلادهم . هؤلاء الغزاة هم « الخيتيون » ، الذين لم يقصدوا من غزوهم لبلاد الرافدين احتلالها أو استيطانها بل نهبا فى هجمة سريعة عادوا بعدها إلى بلادهم وقد قضوا على آخر ملك من نسل حمورابى .

فلما انسحب الخيتيون من بلاد بابل ، وكان ذلك حوالى ١٧٥٠ ق.م لم يجد الكاسيون صعوبة فى فرض سيادتهم على البلاد ، وكان انتصارهم إيذاناً بزوال تقدم البابليين فى حضارتهم . وهوت بابل إلى الحضيض وظلت فى غفوتها دون أن تفيق حتى ظهرت كلدنيا على صفحة التاريخ . وهكذا انتهى أول الفصول العظيمة فى تاريخ بلاد النهرين ، أما الفصل الثانى فإن مسرح حوادثه لم يقع فى بابل بل انتقل شمالاً إلى المنطقة التى تعرف باسم « آشور » ، والى كانت أثناء حكم مملكة بابل إحدى الدويلات الصغيرة ثم أخذت تتقدم حتى وصلت فى النهاية إلى أن تكون قوة عالمية .